وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الحجاج والمحاورة في قصة ابراهيم عليه السلام في القران الكريم

دراســـــــة في الوظيفـــــــة التداوليـــــــة للخطـــــــاب–2/1

د. خليـــــــــــــــــفة بوجـــــــــــــــــادي

ما تزال علاقة القديم بالحديث إشكالا جديرا بالتناول، لا سيما مع هذا الزخم المعرفي الحاصل. ولــذلك فــالبحوث اللســانية العربيــة اليــوم، فــي علاقتهــا بــالتراث، أمــام ثــلاث ملاحظــات:
أ–التثبُّت حين استخدام المصطلحات الحديثة في الثقافة العربية، وبيانُ مجال مدلولها، وحين تطبيقِ مناهجَ حديثة، ناشئة في بيئات لسانية غيرِ عربية.
ب–وفي مقابل ذلك، ليست مدوّنتُنا اللسانية كتابا مسطورا، لم يفرّطِ في شيء، بلِ اِنها بحاجة إلى أن تحدد موقعَها ضمن جهود الفكر اللساني عموما.

جـ–ما تزال مدونتُنا اللسانية –تحديدا– بحاجة إلى قراءة تتجاوز النقل والنظم والتلخيص والحواشي وشرحَ المتون... إلى قراءة باعثة، تحددُ المرامي وترسم المنطلقات..، قراءة تُسهم في بناء التواصل المعرفي الحاصل اليوم.

ضمن هذه الملاحظاتِ، أقترح هذه الدراسة الموسومة بـ: الحِجاج والمحاورة في قصّة إبراهيم عليه السلام؛ حيث تُعرَض القصّة من خلال آياتها المبثوثة في كثير من سور القرآن الكريم، ولأنها تتميز عن سائر القصص القرآنية بجملةِ ملامحَ أسلوبية، وبنى تركيبية، اقتضتها طبيعة أحداثها وفصولها. وذلك من خلال تناول ملمَحين تداوليين حفِل بهما الدرس التداولي الحديث للخطاب، والدرس العربي القديم خصوصا، وهما: درجات الحجاج، ومستويات المحاورة.

I– علاقة الحجاج بالمحاورة في الدرس اللساني التداولي الحديث، مع محاولة تأصيلية.

This file was downloaded from QuranicThought.com

1I- الحجـاج: الحِجـاج والحَجـاج، والمحاجَّـة، والتحـاجّ ... مصـطلحات تتكـرر كثيـرا فـي موضوعات دراسة الخطاب، وتعني فيما تعنيه وصف حوار المتخاطبين، حين يكون فيه أخذ وردّ.

وقد تعدّدت الدّلالات المعجمية للكلمة؛ مع أنها لا تخرج عن المعنى العام لجذرها، وهو الأمر الذي يكون فيه أخذ وردّ. فقالوا: "محْجِية" لمخالفة المعنى واللفظ، وكذلك الأحْجية والأحْجُوّة. ومنه حاجيْتُه، محاجاة وحجاءً :أي فاطنتُه فحجوْتُه(1). وحاجيته فحجوتُه، إذا ألقيت عليه كلمة محْجية؛ مخالفة المعنى للفظ(2)، نحو قول الجارية للأخرى: حُجَيَّاك ما كان كذا وكذا. وفي الدلالة الأولى هذه، اشتراكٌ بين مخاطبين أو أكثر، في مخالفة اللفظ للمعنى، مما يجعلُ الخطابَ أخذا وردّا بينهما.

وذكروا: "ألْحَاجُ الوادي (ومفردها لحَج) بمعنى: أطرافه، ورجل أفْحَج ودابّة فَحْجاء. ومنه الفَحَج، وهو تباعد ما بين أوساط الساقين عند الإنسان والدابّة. والتفحيج: التفريج بين الرجلين. وفي الحديث: "تفحَّج ساقاه"؛ في صفة الدجّال(3). وفي هذا، دلالةٌ على أنّ من الأصول المعجمية للفظ، الفرجةَ بين الشيئين، أو الأشياء. ومن ذلك أيضا:

الحَجَاج (بالفتح) والحِجَاج (بالكسر)، وهو الجانب من كل شيء؛ ويُطلق على العظم الذي ينبت عليه الحاجب، وعلى حاجب الشمس أيضا(4). ويشترك مع الدلالة السابقة في أنه يحدّدُ الفرجة التي تقع بها العين، أو موضع الشمس.

وذكروا أيضا: المِحْجاج: الجَدِل، أو الذي يغلب بالحجة؛ وذلك أنه في المجادلة أو المناظرة، تتحدد أطراف المتجادلين، وتظهر الفرجة بينهما في أوجه النظر من حيث الاتفاق والاختلاف.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

وبذلك يكون معنى الحجاج قد انتقل من الدلالة الحقيقية السابقة (الفرجة بين الشيئين أو الأشياء)؛ إلى الاستخدام المجازي، وهو (الفرجة بين اللفظ والمعنى، ومخالفة كل منهما للآخر، أو الفرجة بين المتخاطبين، واختلافُ رأي أحدهما عن رأي الآخر.). ومن المشتقات الأخرى التي خلُصت إلى الدلالة المجازية فقط، التحاجّ؛ وهو التخاصم(5)، وورد في القرآن الكريم بصيغة الفعل في أكثر من موضع، بدلالات مختلفة، نحو التخاصم، والمجادلة، والمساءلة..، في نحو الآيات:

- "قلَ اَتحاجُّوننا في اللهِ وهو ربُّنا وربُّكم ولنا أعمالُنا ولكمْ أعمالُكم ونحنُ له مخلصون" البقرة/138.
- "ألم ترَ الذي حاجَّ إبراهيمَ في ربِّه..." البقرة/257، جادل وخاصم.
- "وإذ يتحاجُّون في النار..." غافر/47؛ أي يتخاصمون(6).
- "أتُحَاجُّوني في اللهِ وقدْ هَداني..." الأنعام/81؛ أي أتجادلونني في أمر الله.
- وفسّر ابن كثير قوله تعالى: "يومَ تأتي كلُّ نفسٍ تجادِلُ عنْ نفسِها..." النحل/111؛ أي تحاجّ عن نفسها، وليس أحدٌ يحاجّ عنها(7).
- وفسّر الطبري قوله تعالى أيضا: "وإذْ قال إبراهيمُ لأبيه آزر" الأنعام/74، بقوله: "واذكر يا محمد لِحجاجك الذي تحاجّ به قومَك وخصومَك إيّاهم في آلهتهم(...)، وحقيقةِ ما أنت عليه محتجّ، حجاجَ إبراهيمَ خليلي قومَه، ومراجعتَه إياهم في باطل ما كانوا عليه مقيمين من عبادة الأوثان..."(8).
- وفي الحديث "فحَجَّ آدم موسى"، وفي لفظ آخر "تحاجَّ آدم وموسى، فحجّ آدم موسى؛ فقال له موسى أنت آدمُ الذي أغويت الناسَ وأخرجتَهم من الجنّة؟ فقال آدم: أنت موسى الذي أعطاه الله

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

علم كل شيء، واصطفاه على الناس برسالته؟ فقال نعم. قال: أفتلومُني على أمر قُدِّر عليّ قبل أن أُخلَق"(9).

ومن خلال هذا العرض، يظهر أن المعنى العام للحجاج؛ المجادلةُ والتخاصمُ الكلاميّ، وأخذُ الحديث وردّه.. وأمام هذا المعنى أربعة مصطلحات: الحَجاج، الحِجاج، التّحاجّ، والمحاجّة.

وقد يكون استخدام المصطلح الثالث أقربَ إلى المعنى المراد، لأن في صيغته دلالةَ المشاركة بين المتخاطبين التي لمسناها قبلُ في المعنى المعجمي لمادة هذه الكلمة (فهي على صيغة فاعَل التي من دلالاتها المشاركةُ)، وهي دلالة صرفية مزيدة إلى دلالة المشاركة المعجمية الأصلية في الكلمة. ويُعدّ (التحاج) كذلك مصدرا صريحا لفعل حاجّ (حاجَجَ)، يُحَاجُّ (يُحَاجِجُ)، تَحَاجّاً(10) (تَحَاجُجًا)، ومحاجّةً (محاججة)، وحجاجا.

ومنه أيضا: حَجَّهُ: غلبه على حجّتِه؛ وسميت حُجّة لأنها تُقصد (ومن ذلك الحجّ الذي من دلالاته اللغوية القصد)، ولأن القصدَ لها وإليها، ومنه مَحجّة الطريق: مقصده. ويمكن الآن عرض أهم الدلالات التي يُحيل إليها لفظ (التحاجّ أو المحاجّة) وهما الأكثر غنى من الحَجاج بالفتح أو بالكسر، بهذه الدلالات:

- دلالة المشاركة؛ وهو من أصول المجادلة والمحاورة التفاعل أثناء الحديث.
- دلالة القصد؛ وهو شرط أساسي في الحديث والمجادلة.
- دلالة الحجة؛ لأن المجادلة والمحاورة تظهر فيها الحجة أكثر من الحديث العادي.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ولدلالة القصد حضور كثير في الدرسين العربيين النحوي والبلاغي، وفي لسانيات التواصل الحديثة؛ ذلك أنه متوفر في كل لحظة من لحظات استعمال اللغة(11)، وهو مهيمن على اللغة ذاتها، إلى جانب هيمنته على الطرف الثاني في الحوار، فيصبح حينها مكتسبا بعدا تواصليا(12)؛ يذكر صاحب المغني: "إن المكلِّم لغيره، إنما يحصل مكلما له بأن يقصدَه بالكلام دون غيره، ويكون آمرا له متى قصدَه بالكلام، وأراد منه المأمورَ به"(13). والقصد عند فلاسفة اللغة يقتضي تأسيس الدلالة اللغوية على قُصود المتكلمين، ويتخذ الصورة التالية(14): إن قول "القائل" لا يمكن أن يفيد شيئا إلا إذا قَصد القائل الأمور الثلاثة الآتية:

أ- أن يَدفع قولُه إلى نهوض "المقول له" بالجواب [القصد].
ب- أن يتعرف المقولُ له على هذا القصد [قصد القصد].
ج- أن يكون انتهاض "المقول له" بالجواب مستندا إلى تعرفه على قصد القائل [قصدُ قصدِ القصْد].

والتحاج أو (المخاطبة) في الدرس التداولي الحديث، يكاد يرتبط كثيرا بالبحوث البلاغية، لاسيما فيما يتعلقُ بمفهوم الإقناع أو البلاغة البرهانية، وهو مرتبط في مفهومه بالفعل؛ لأنه بحثٌ من أجل ترجيح خيارٍ من بين خيارات قائمة وممكنة، بهدف دفع فاعلين معينين في مقام خاص، إلى القيام بأعمال إزاء الوضع الذي كان قائما(15). هذا، إلى جانب اهتمامه بأساليب إجراء اللغة، وتنويعات الخطاب، ومقاماته، وطبائعِ الناس المعنيين بكل مقول معين(16)، وأساسُه الاهتمام بالسامع المعنيّ بالخطاب.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

وعُرّف أيضا بأنه طريقة إظهار الحجج وعرضِها لتأكيد الخطاب.(17)

وفي نهاية الحديث عن الحِجاج، نشير إلى أن المدونة الفلسفية العربيةَ خصوصا، وكذلك البلاغية والنحوية، حافلة بمبحث (التحاجّ والمحاجّة) ومقتضياته، فنجد المصطلح نفسَه في الفلسفة؛ في المباحث التي تهتم بأصول الحوار، وعلم الكلام، والمناظرات. وقد اهتم بتقديمه طه عبد الرحمن في (في أصول الحوار وتجديد علم الكلام).

كما أن المباحث البلاغية، لا تخلو من شرح الأغراض المختلفة للمتكلم وقُصوده، ولم تُغفِل وضعَ المتلقي أمام الخبر أو الإنشاء المرسل إليه. وكذلك المباحث النحوية، التي اهتمت هي الأخرى بموضوع "القصد"، وجعلته أساسا في التمييز بين الجملة والكلام، وفي مواضع أخرى من موضوعات النحو العربي. وهذا جدير بأن يُتحدَّث عنه بالتفصيل في مناسبة أخرى غيرِ هذه.

2I-: المحاورة:

المحاورة شكل من أشكال التخاطب، لكنها تختلف عن التحاجّ في بعض المقوّمات، سنتبيّنها من خلال العرض المعجمي التالي:

ورد في لسان العرب:"الحوْرُ" ما تحت الكوْر من العمامة، لأنه رجوع عن تكويرها(18)، و"المحور" (مثل المنبر)، حديدة أوخشبة يبسط بها العجين، و"حَوَّر" الخبزة: أدارها وهيّأها

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ليضعها في الملة.(19)

فالأصل الاشتقاقي لـ(المحاورة) يحدد معنى عامّا هو ردّ الشيء، وإرجاعه؛ كما في كوْر العمامة؛ الذي لا يحصل إلا برجوع الثنيات بعضِها فوق بعض، وكذلك تدوير الخبزة، لا يحصل إلا بالمعاودة والمراجعة.

وهذا قريب من المعنى المجازيّ الذي انتقلت إليه دلالة اللفظ؛ حيث حُدّد معناه في: "المحاورة" و"المتحورة" و"المَحْوَرة": الجواب (20)؛ ولا يحصل الجواب إلا برجوع الكلام. و"الحوار" مراجعة النطق، وقالوا: كلمتُه فما رجع إليّ حَوَارًا، وحِوَارًا، ومحاورة وحَوِيرًا ومحورة؛ أي جوابا(21)، واستحاره: استنطقه(22).

فدلالتها الأولى هي الجواب والمجاوبة، والتجاوب؛ أي مراجعة الكلام وردّه (23). وقالوا: "تحاوروا"؛ أي تراجعوا الكلام فيما بينهم؛ فهي تحدد دلالة فرعية أخرى هي الاتصال وتواصل، والتخابر، والمخاطبة، كما في قوله تعالى على لسان صاحب الجنة: "فقال لصاحبه وهو يحاوره" الكهف/34، وكما في (24):

فازورّ مِنْ وقْع القَنا بلَبانه وشكا إليَّ بعبرة وتحمحمِ

لو كان يدري ما المحاورةُ اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمي

فهي تعني إلى جانب "المجاوبة" السابقة، المخاطبة والمخابرة التي تقوم على مراجعة المنطق والكلام، ورد بعضه إلى بعض، لما يعد تشبيها بالمعنى الحقيقي السابق لها.

ولهذا يمكن جمع الدلالات العامة للمحاورة في:

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

1 مبدأ الاشتراك في التخاطب والتعاون مع الغير، وهو أساس المحاورة وكل حديث؛ حيث يتوجه المحاور إلى غيره، مطلعا إياه على ما يعتقد وما يعرف؛ ومطالبا إياه بمشاركته اعتقاداتِه ومعارفَه، وهنا يكتمل البعد الاجتماعي للمحاورة (25).

2 مبدأ المجاوبة، وردّ الكلام بمنطقه؛ حيث تلجأ إلى الحجة في الغالب، عندما يطالب المحاوِر غيره بمشاركته معارفه دون إكراه ولا قمع، وإنما بالسبل الاستدلالية، وتتبع أصول الكلام وأوائله، ورد الأواخر على الأوائل فيه، فإذا اقتنع الغير بذلك –وهنا يكمن البعد الإقناعي للمحاورة– كان كقائل الحديث، وإلا ردَّه، مطْلِعا إياه على رأي مختلف. وقد يلجأ المحاور إلى أساليب الامتناع، مع الإقناع، ليؤثر في اعتقاد المخاطب؛ ذلك أن اللغة ليست أداة للتواصل والتخاطب فحسب، وإنما اللغة وسيلتنا للتأثير في العالم وتغيير السلوك الإنساني من خلال مواقف كلية (26).

3 مبدأ القصد في الحديث والتخابر.

ويميز (طه عبد الرحمن) بين ثلاث مراتب في السلوك الحواري عموما:

"الحوار والمحاورة والتحاور" تمهيدا لممارسةٍ لسانية عربية، في ميدان تحليل الخطاب (27). ويختص كل منها بمنهج استدلالي، وآلية خطابية، وبنية معرفية، ونماذج نظرية، وشواهد نطقية. وتتفاوت في قدرتها على أداء الحوارية وتأصيلها (28).

ففي الحوار يقوم الحديث على مبدإ الادّعاء؛ حيث يعتقد المتكلم صدق ما يعرضه، ويُلزم السامع بتصديقه، بالأدلة التي يقيمها على ذلك، وبيقينه بهذا الصدق، وصحة أدلته.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

أما في المحاورة، فيرتقي السامع من مرتبة متلقي الحديث وحسب، إلى مرتبة المتعاون في إنشاء معرفة مشتركة، ملتزما أساليب تضمن الإبلاغ وتحقق الإقناع. وفي التحاور يصبح الحديث قائما إلى جانب الاشتراك والتعاون، على التعارض، وهو من مراتب التحاج؛ حيث يعتمد قواعده (معارضة قول المتكلم، والحجة مع الاعتراض، وصحة القصود، ورد الكلام بالحجة والمنطق..).

ويمكن أن نجد للحوارية بهذه المراتب المختلفة أصولا كثيرة في المدونة العربية، باختلاف مجالاتها وعلومها؛ فنجد لدى أبي هلال العسكري مثلا، حرصا على إحراز المنفعة في الخطاب مع موافقة الحال (29)، واهتماما بالغا بمواصفات المتكلمين أنفسهم، فيما ذكره الجاحظ في صفات المتكلم البليغ(30). كما أن البلاغة الكلاسيكية جميعا أكدت وعي المتكلم بأحوال مخاطبيه ومقاماتهم الفعلية والمتوقعة(31). ولقد عالج علماء الأصول المسلمون النص الشرعي في ضوء هذه المفاهيم التداولية للخطاب، اعتمادا على أحوال المتكلم من جهة، و أحوال المخاطبين وطبائعهم. كما أن الشريعة ذاتها خاطبت الناس على اختلافهم: من الجمهور الذي هو ليس من أهل التأويل أصلا، ومن الجدليين الذي هم أهل التأويل الجدلي، ومن أهل التأويل اليقيني القائمين بصناعة الحكمة. يقول ابن القيم مثبتا ذلك، ومؤكدا أن الخطاب الشرعي غني بالأحوال المختلفة للمخاطبين، وأن أساس الخطاب التحاجّ: "ويظن جُهّال المنطقيين وفروخ اليونان أن الشريعة خطاب للجمهور، ولا احتجاج فيها، وأن الأنبياء دعوا الجمهور بطريقة الخطابة، والحجج للخواص، وهم أهل البرهان، يعنون أنفسهم، ومن سلك طريقهم. وكل هذا من جهلهم بالقرآن، فإن القرآن مملوء بالحجج والأدلة والبراهين في مسائل التوحيد وإثبات الصانع والمعاد.." (32).

This file was downloaded from QuranicThought.com

3I-: بين الحجاج والمحاورة:

نستطيع أن نرصد الآن جملة فروق بين الحجاج والمحاورة؛ فإلى جانب الفروق المعجمية اللغوية التي تجعل كلا منهما قائما بذاته؛ إلا أنهما يلتقيان في دلالة المشاركة وأخذ الكلام وردّه, والتعاون مع الغير في إنشاء الخطاب وتداوله؛ وفي هذا، قد يكون التحاج أصلا من أصول المجادلة والمحاورة والتفاعل الكلامي. كما يلتقيان في مبدإ القصد في الحديث؛ تخابرا كان أو تحاجا, إلا أن بينهما فرقا حين يختلف مبدأ المجاوبة في الخطابين؛ فإن كان مسار الخطاب قائما على هذا المبدإ وردّ الكلام بمنطقه؛ حيث يطلب المخاطب غيره مشاركته معارفَه بقصد, ودون إكراه ولا قمع، فإن هذا الخطاب محاورة على اختلاف درجاتها بحسب السبل الاستدلالية للكلام, ورد الأوائل على الأواخر.

وحين لا يقتنع المخاطب بذلك –وقد يبدي رأيا مختلفا– ويُصعَّد مسار الخطاب إلى درجة أعلى؛ حيث يعتمد المخاطب الحجة, وقهر الخصم, وإفهامه بمعاكسة أقواله ومحاجّتها؛ هنا يتحقق مستوى التحاجّ في الخطاب؛ ولا يربط المتخاطبين أثناء ذلك مبدأ التعاون والمجاوبة, بقدر مبدإ المجادلة ومعاكسة الحجة بالحجة.

وفي قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام, على اختلاف مشاهدها وفصولها في آي القرآن الكريم, نماذج عديدة للخطاب؛ تحاجّاً ومحاورةً، وفيما يلي بيان ذلك:

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

II- قصة إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم؛ أحداثها وفصولها:

تتعدد السور القرآنية التي عرضت قصة إبراهيم عليه السلام ؛ حيث تزيد على ثلاث عشرة سورة, فضلا عن ورود سورة كاملة باسمه عليه السلام. وفيما يلي عرض لمشاهد القصة وفصولها:

1- إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم: أثنى القرآن الكريم على إبراهيم الخليل ثناء كثيرا, وهو يعرض فصول حياته المختلفة بدءا من إعداده منذ صغره ليكون أهلا للرسالة التي بُعِث بها, وله مكانة "الخليل" التي خُصّ بها, فقال تعالى:"ولقَد آتينا إبراهيمَ رشدَه منْ قبلُ وكنّا به عالمين" الأنبياء/51. وقد عاش بين قوم يعبدون الكواكب والأصنام، وكذلك كان كل من على وجه الأرض، غير إبراهيم الخليل وامرأته وابن أخيه لوط (33).

كما ذُكر عنه أيضا أنه بنى البيت العتيق، وهو أول مسجد وُضع لعموم الناس, يعبدون الله فيه, وبوّأه مكانه؛ أي أرشده إليه ودله عليه, قال تعالى: "وإذْ بوَّأْنا لإبراهيمَ مكانَ البيتِ أنْ لا تشركْ بِي شيئاً وطهِّرْ بيتيَ للطائفيَن والقائميَن والرّكَّعِ السّجود وأذِّنْ في الناس بالحجِّ يأتوكَ رجالاً وعلى كلّ ضامرٍ يأتيَن منْ كلّ فجٍّ عميق." الحج/26-27.

و أثنى عليه حين جعله للناس إماما يقتدون به, ويأتمّون بهديه, كما جعل الإمامة متصلة به, باقية في نسبه, قال تعالى:"وإذِ ابتلَى إبراهيمَ ربُّه بكلماتٍ فأتمّهنّ, قال إنّي جاعلُك للناس إماماً, قال ومنْ ذرّيتي, قال لا ينالُ عهديَ الظالمين" البقرة/124. وقال: "ووهبْنا لهُ إسحاقَ ويعقوبَ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

وجعلْنا في ذرّيتِه النبوّةَ والكتابَ و آتيناه أجرَه في الدّنيا وإنّه في الآخرة لمنَ الصّالحين." العنكبوت/27, واتخذه الله خليلا بصريح الآية:"واتخذَ اللهُ إبراهيمَ خليلا." النساء/123. ومدحه لأنه أتم وأكمل ما أمره به، في قوله تعالى: "وإبراهيمَ الذي وَفَّى" النجم/36.

2- إبراهيم عليه السلام وابنه: لم يرد في حديث إبراهيم عليه السلام إلى ولده, غير ما ذُكر في سورة البقرة "وإذْ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ من البيتِ وإسماعيلُ ربنَّا تقبّلْ منّا إنّك أنتَ السميعُ العليم" البقرة/126، وما ورد من حوارهما في آية الرؤيا في سورة الصافات (الآيات 99-102). وفي ذلك اختبار لإبراهيم عليه السلام في ذبح هذا الولد العزيز الذي جاء على كِبَر، وبعد أن أُمِر أن يُسْكَن هو وأمه في بلاد قفر. ويعرض إبراهيمُ عليه السلام -مطيعا- هذا الأمر على ولده، ليكون أطيبَ لقلبه وأهون عليه من أخذه قوة وجرا. وبادر الغلام لإجابة ذلك فكان مثالا في الطاعة للوالد وربّه.

3-إبراهيم عليه السلام والمشركون: ورد تفصيل مواقفَ عديدة لإبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم مع المشركين, ومنهم:

أ- إبراهيم وأبوه: ذُكر حديثه مع أبيه مستقلا عن قومه سردا, في أكثر من موضع, نحو: "وإذْ قالَ إبراهيمُ لأبيه آزرَ أتتخذُ أصناما آلهة إني أراكَ وقومَك في ضلال مبين" الأنعام/75. وورد حديثه إلى أبيه حوارا صريحا في سورة مريم، وهو يدعوه إلى عبادة الله وحده، الآيات (42-48).

ب- إبراهيم وأبوه وقومه: هذا أكثر ما ذكرَه في القرآن الكريم مقارنةً بذكره مع ابنه؛ ومن شواهده

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

مـا ورد فـي الأنبيـاء/51-67، وفـي الشـعراء/69-89، وفـي العنكبـوت/15-16، وفـي الصـافات/83-98.

جـ- إبـراهيم والملـك الكـافر:

ورد في القرآن الكريم مناظرة إبراهيم الخليل للملك نمرود الذي ادَّعى الربوبية وحاجَّ إبراهيمَ في ربـه, فأفحمـه الخليـل بالحجـة و أبـهَته, وورد ذلـك فـي البقـرة/ 257.

4-إبراهيم عليه السلام وضيفه: تكرر حديث ضيف إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم، في نحو أربع سور عرضت قدوم رسل ربه عليه، وكانوا ثلاثة : جبريل وميكائيل وإسرافيل، فحسبهم أضيافا، وعاملهم معاملة الضيوف وكان من أمرهم وأمره ما ورد في هود/68-75، والحجر/51-58، والعنكبوت/31-32، والذاريات/24-33.

5-إبراهيم وحديثه إلى ربه تعالى: يتميز في قصة إبراهيم -عليه السلام- أيضا، خطاب آخر يختلف عن أنواع الخطابات السابقة، وهو حديثه إلى ربه، في نحو سؤاله عن إحياء الموتى في البقرة/259، ودعائه للبيت ولذريته في إبراهيم/37-43، وفي البقرة/123-128.

وفي آخر هذا العرض لآيات الحِجاج والمحاورة في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام، ينبغي الإشارة أيضا إلى أن هذه الآيات نفسَها مع آيات أخرى لم نذكرها ورد فيها ذكر إبراهيم عليه السلام، غنيةٌ بمصطلح التحاجّ؛ باللفظ ذاته، أو بـ /الجدال/ مرادفه، نحو قوله تعالى "ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيمَ في ربه ..." البقرة/257، وقوله "يا أهل الكتاب لمَ تحاجّون في إبراهيمَ وما أُنزِلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون هأنتم هؤلاء حاججتُم فيما لكم به علم، فلم تحاجّون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون" آل عمران/24-25، وقوله:

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

"وحاجّه قومه قال أتحاجُّوني في الله وقد هداني ... وتلك حجّتنا آتيناها إبراهيمَ على قومه" الأنعام/ 81 و84، وقوله: "فلما ذهبَ عن إبراهيمَ الروعُ وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط" هود/73.

وتسجِّل هذه الدراسة بأن قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام وعناصرَها غنية –بوجه خاص– بصيغ الحجاج والمجادلة، كما لاحظنا في الآيات الشواهد المذكورة؛ حيث لا يكاد يخلو ذكر الحجاج، تحاجون، يجادلنا، حاججتم، قال.. وهي كلها أفعال إنجازية، بما يمكن أن يترتب عنها من سلوك لدى المتكلم ومتلقيه. ومن ناحية أخرى، فإن شيوع مثل هذه الصيغ في قصة إبراهيم –عليه السلام– يقتضيه موضوعها القائم على المحاجَّة والمحاورة، على اختلاف مستويات الخطاب فيها، كما سيتضح في المبحث الموالي.

ولعل من معاني: قال، جادل وحاجّ، –وهي الأفعال الثلاثة الشائعة في القصة– التعبير عن واقع الأداء اللغوي كما هو لدى المتكلم؛ والكشف عن حجم التزامه بما يتلفظ به أثناء العملية الكلامية.

وبالعودة إلى حديث أوستين الذي ميّز بين صنفين من العبارات: العبارات الوصفية التي تصف شيئا في الواقع الخارجي، ويمكن أن يُقال عنها صادقة –مطابقة للواقع–، أو كاذبة؛ غير مطابقة للواقع، نحو الجوّ جميل. والعبارات الإنجازية التي لا تصف شيئا في الواقع الخارجي، ولا يمكن الحكم عليها بالصدق والكذب، وتمتاز بأن النطق بها لا يتزامن مع تحقّق مدلولها. ومنها: قال، وعد، سأل، حذر.. ويجب أن يكون المتكلم بها هو فاعلها، وفي زمن الحاضر (34). وهذا طرح

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لا يختلف عن تقسيم البلاغة العربية للأسلوب قسمين: خبر وإنشاء، على أساس المطابقة وغير المطابقة. والأفعال (قال، جادل، حاجّ) في كثير من الآيات السابقة، هي أفعال إنجازية غير وصفية، لأنها تحقق شيئا في الواقع الخارجي، وتؤدي فعلا، نحو: " وأعتزلكم وما تدْعُون من دون الله وأدعو ربي"، ونحو "فلما ذهب عنِ ابراهيمَ الروعُ يجادلنا في قوم لوط " حكايةً؛ فـ: أعتزلكم، وأدعو،... وغيرهما من الأفعال التي تحفل بها القصة، وهي إنجازية، لما تتصف به من التزام المتكلم اتجاه موضوع الخطاب، ومما تُحدِثه من تغيير في سلوك المخاطَب ومواقفه. والمتأمل لشواهد القصة جميعا يجدها لا تخلو من هذه الأفعال، لأن موضوعها قائم على الحجاج والمحاورة، وهما يقتضيان هذه الأفعال دون غيرها.

III – المظاهر الحجاجية في قصة إبراهيم عليه السلام:

تبين فيما سبق أن قصة إبراهيم عليه السلام تحفل كثيرا بلفظ الحِجاج وما يرتبط به من أفعال تؤدي الدلالة نفسها، نحو: قال، جادل، أعتزلكم، أدعو .. ولقد اتّضح أن للحجاج الأبعادَ الدلالية التالية:

- دلالة المشاركة والتفاعل أثناء أداء الخطاب.
- دلالة القصة في توجيه الخطاب.
- دلالة الحجة، لأنها أساس الحجاج، وبخلاف المحاورة غالبا.

فإذا تكرر الحجاج بصيغته اللفظية، أو بأفعال تتضمن دلالته، فإن في ذلك تكرارا لهذه الدلالات

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

في القصة، مما يجعلها تحتفظ بخطابها التداولي، خلافا لقصص قرآنية أخرى كثيرة، من خلال الحوار القائم بين المخاطَبين. وتحديدا، من خلال حضور الحجة في أشكال خطاباتهم.

وحين نتتبّع الشواهد المذكورة سابقا، ونرصُد الحجج التي ساقها المتخاطبون، نسجل أن إبراهيم عليه السلام هو قطب الخطاب في القصة جميعا، ويَنتظر في كل موقف خطابي جوابا، باختلاف مخاطبيه. ولعلّ من مفاهيم الحِجاج التداولية، أن المتكلم ينتظر ممن يوجه إليهم الخطاب حركة تنسجم مع المقاصد القولية التي ينتجها. ويسمى ما يقومون به حينها لازمَ الفعل، بِعدِّ قول المتكلم فعلا كلاميا إنجازيا. وعلى المتكلم أن يعيَ جيدا أحوال مخاطبيه ومستوياتهم المختلفة ليحقق مقاصده.

وأساسُ الحجاج تداوليا حضورُ الحجة، وربما كانت الحُجّة هي الفرق بينه وبين المحاورة، ولذلك ذكر البلاغيون العرب قولَ بعض أهل الهند أن: "جماعَ البلاغة البصرُ بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة" (35).

فإبراهيم عليه السلام في كثير من مواقفه المعروضة سابقا، يتحيّن فرصة الخطاب المناسبة، لإصدار الحجة المفحِمة لمحاجِّه، أو المبينة لمحاوره، كما يتضح ذلك من خلال أشكال الحجاج ومستوياته الآتية:

1- مستويات الحِجاج في قصة إبراهيم عليه السلام:

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

يمكن أن نحدد ثلاثة مستويات للحجاج في القصّة، مندرجة من الحديث القائم على البرهان ودليل صحة المقول، إلى الحديث مع إيراد الحجة للتدليل على صحة المقول وصدق القائل، إلى أعلى مستويات الحجاج، وهو الحديث مع رد الحجة لتكذيب المخاطب ودحضه.

أ–حديث إبراهيم عليه السلام القائم على البرهان والتدليل: نسجل من هذا المستوى ثلاثة مواقف، الأول: مع ابنه عليه السلام، في قوله تعالى: " فلمّا بلغَ معه السَّعْيَ قال يا بنيّ إنيَ أرى في المنام أنيّ أذبحك، فانظرْ ماذا ترَى" الصافات/99–102. ؛ حيث يقوم الخطاب في هذه الآية على عرْض الموضوع (الذبح) من إبراهيم عليه السلام (المخاطِب) على سبيل الإخبار لا الطلب، مورِدا دليل خبره، وهو رؤيا منامه، ليكون مقنعا لمخاطَبه (إسماعيل) للاستجابة إلى الطلب. وكان الجواب بفعل طلبي / افعل ما تؤمر/.

هذا على مستوى دليل الخطاب، أما على مستوى بناء الأفعال في الآية، فإن فعل / أرى/ الذي أورده المخاطب، فهو فعل كلامي إنجازي مما ينبني عليه أداء، أما الثاني فهو وصفي، لأن صاحبه في مقام المتلقي.

والثاني مع قومه – عليه السلام– في قوله تعالى: " واتل عليهم نبأَ إبراهيمَ إذ قال لأبيه وقومه ما تعبُدون قالوا نعبدُ أصناماً فنظلُّ لها عاكفين، قال هل يسمعونكم إذْ تدعُون أو ينفعُونَكم أو يضرُّون قالوا وجدْنا آباءَنا كذلكَ يفعلون" الشعراء/69–72. فقد سألهم – عليه السلام– ما تعبدون؛ سؤالا لا يقوم على معنى الاستفهام الحقيقي، بل يجنح إلى غرض آخر وهو استدراجهم

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

إلى الجواب المعروف سلفا من طرفه. وبعد أن يصدُر الجواب، يقول موردا دليل سؤاله – الذي ما ينبغي أن يصدُر في نظرهم – وهو: هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون. وهو دليل كاف، ليجعل المخاطب (قومه) يعرف أن سؤاله الأول قائم بسبب سؤاله الثاني (الدليل)، وفي هذا استدراج بالغ إلى غرض الخطاب. وسرعان ما يحتدّ الحجاج إلى مستوى آخر في الآيات الموالية.

والثالث مع قومه أيضا، في قوله تعالى: " وإبراهيمَ إذْ قالَ لقومِه اعبُدوا اللهَ واتقُوه ذلك خيرٌ لكم إن كنتمْ تعلمُون، إنما تعبدُون من دون الله أوثانا وتخلُقون إفكاً، إنَّ الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكمْ رزقا، فابتغوا عند الله الرزقَ واعبُدوه واشكروا له إليه تُرجَعون " العنكبوت/15–16.

فقد عرَضَ موقفَه في البداية بقوله: إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا؛ وفي هذا حكمٌ قد لا يستسيغه مخاطَبوه، لذلك أعقبه بدليل إصداره، وهو: إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا. وهو دليل كاف لينساق سامعُه معه للتلقي، فيجد فرصة للإضافة: فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه؛ وذلك غاية خطابه وحِجاجه. ولقد جعل الحكم سابقا للدليل لغرض الإثارة وضمان الالتفات.

ب– حديث إبراهيم عليه السلام مع إيراد الحجة لدحض رد الفعل: يتجلى ذلك في موقفه مع أبيه :"إذْ قالَ لأبيه يا أبتِ لمَ تعبدُ ما لا يَسمعُ ولا يُبصرُ ولا يغني عنكُ شيئاً يا أبتِ إني قدْ جاءني منَ العلم ما لمْ يأتِك فاتَّبعني أهدِك صراطا سويًّا يا أبتِ لا تعبُدِ الشيطانَ إنَّ الشيطانَ كان للرحمنِ عصيًّا يا أبتِ إني أخافُ أنْ يمَسَّك عذابٌ منَ الرحمن فتكونَ للشيطان وليّا. قال أراغبٌ

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ANIC THOUGHT

أنتَ عنَ آلهتي يا إبراهيمُ، لئن لم تنته لأرجمنَّك واهجرني مليّا. قال سلامٌ عليكَ سأستغفر لك ربي إنّه كان بي حفيّا وأعتزلكمْ وما تدعون من دون الله عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا " مريم/ 42-48.

يقوم الخطاب في هذه الآيات على مبدأي المحاورة والحِجاج؛ لكن الحجاج فيها قائم على طرف واحد، وهو إبراهيم –عليه السلام–؛ بعدّه باعثَ الحوار (إذ قال لأبيه)؛ حيث يرسل الحكمَ استفهاما لغير الاستدراج:لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر. ويُعقبه بدليل للإقناع: إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك. ثم يرسل طلبا آخر: لا تعبد الشيطان، ويُعقبه بدليل: إني أخاف أن يمسك... والأدلة هنا قائمة في نفس المتكلم، بخلاف الأفعال والأحكام القائمة في نفس المتلقي. وفي هذه المناوبة بين الحكم والدليل، نسجل أن المحاورة كانت بألطف العبارات وأرقّها، وذلك من دواعي الخطاب، ومقتضيات المقام، حتى بعد احتدادها، فقد حافظ إبراهيم عليه السلام، على السَّمْت العاطفي النفسي، قائلا: سلام عليك سأستغفر لك ربي. وقد توالت الأحكام بأدلتها، إكثارا على السامع، وجلبا لتفكّره وإقناعه، لكنه لما كان معاندا؛ كان جوابه من غير ما طُلِب في الأساليب السابقة (لمَ تعبد – لا تعبد)، وورَد استفهاما إنكاريا: أراغبٌ أنتَ عن آلهتي يا إبراهيم؟.

وتظهر طبيعة المتلقي وموقفه من خلال بناء هذه الجملة المخالف للبنى المتوقّعة للإجابة؛ ذلك أنه هو نفسه (المتلقي) قد شهد موقفا غير متوقَّع من ابنه؛ أن يصدر منه ما صدر، وأن يجاهره ويجابهه بذلك.. لقد كان الأب في موقف غير المتوقِّع، فقدّم في بناء الجملة ما حقّه التأخير،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

على سبيل أنه صار موضوعَ حديث وهو غير المتوقع: رغبة ابنه عن آلهته. ثم أخّر ما حقّه التقديم على سبيل أنه صار محمولا على الموضوع السابق، وهو ابنه: أنت، على النحو:

الأصل في بنية الجملة: أأنت راغبٌ عن آلهتي يا إبراهيم؟. هذا في حال أنه لم يعرف الأمر بعد، أمّا وقد عرفه من خلال المحاورة السابقة، فإن ذلك أحدث في نفسه اللاتوقّع، وتحقق من أنّ ابنه لا يرغب في آلهته.. وصار بتحققه ذلك (موضوعا؛ مبتدأ) وحمل عليه (أنت) لأنه صار في حكم الفائدة الجديدة غير المتوقعة، وصارت البنية: أراغب أنت عن آلهتي.

واستنادا إلى ظروف الخطاب هذه، فقد يصح وجه واحد لإعرابها: راغب/مبتدأ وصف، أنت/فاعل سد مسد الخبر. ولا تحتمل الوجهين اللذين يعرضهما الدرس النحوي (36).

جـ–حديث إبراهيم عليه السلام القائم على ردّ الحجّة: يختلف هذا المستوى عن السابق في أن الخطاب فيه قائم على رد الحجة لتوفرها في خطاب المحاجّ، لا على إيرادها إقناعا وتدليلا. وورد منه موقفان:

الأول حجاجُه مع النمرود، في قوله تعالى: "ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيمَ في ربه أنَ آتاه الله الملكَ، إذْ قالَ إبراهيمُ ربي الذي يحيي ويميت قالَ أنا أُحْيي وأميت قالَ إبراهيمُ فإنَّ اللهَ يأتي بالشمس من المشرق فأْتِ بها من المغرب فبُهت الذي كفَر، والله لا يهدي القومَ الظالمين" البقرة/257.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لقد صنف كثير ممّن تناولوا هذه الآية ضمن المناظرة، وجعل ابن كثير حديثها في باب: ذكر مناظرة إبراهيم الخليل والنمرود(37). والمخاطب في المناظرات عموما، يعدّ ضمن القسم الثالث من أقسام أقوال المخاطب التي حددتها البلاغة العربية في موضوع مقتضى الحال:

1-مخاطب خالي الذهن من الخبر.

2-مخاطب شاكّ متردّد في قبول الخبر.

3-مخاطب جاحد منكِر، رادّ للخبر.

وتتفاوت طبيعة الخطاب ومستويات الحجاج -إن كان حجاجيا- ووسائله، من قسم إلى آخر، حسب التفاوت الحاصل في نفس المتلقي ومقتضى الحال.

ويمكن تصنيف هذا الموقف الحجاجي الحاصل في الآية ضمن القسم الثالث؛ حيث جحد النمرود تفرّد الله تعالى بالإحياء، وأن ذلك من دواعي الإيمان بربوبيته. وأنكر ذلك مدّعيا ومحاجّا بردّ الدليل الذي أورده إبراهيم الخليل "ربي الذي يحيي ويميت" بحجّة أخرى "أنا أحيي وأميت"، ليس إقناعا وتدليلا على نحو غرض حجّة إبراهيم عليه السلام، وإنما جحدا ونكرانا للدليل، وتعاليا على المخاطَب.

ويتعين في هذه الحال على المخاطِب المتعالَى عليه، أن يردّ الحجةَ كما رُدَّ الدليل، بحجّة بالغة اعتمدت على العقل والمشاهدة، وهي: "فإن الله يأتي بالشمس من المشرق"، وهي صفة أخرى من

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

صفاته تعالى، الداعية إلى الخضوع والتسليم: "فأت بها من المغرب". وفي ذلك مصادرة لحجة المخاطَب الذي لن يتوخّاها، لأنها في علم محاجّه، ممّا لا يؤتى به فعلا وأداءً، على الرغم من أن سياق الخطاب (المعاند) يقتضي أن يدّعي النمرود ذلك.. لكنه أخفق في تحقيق استمرار الخطاب، لقيام الحجة؛ وفي ذلك إفحام له، وانتصار لمن ساق مستوى الحجاج إلى هذه النهاية؛ وكان ذكر الله تعالى لذلك : "فبهت الذي كفر، والله لا يهدي القوم الظالمين"؛ "فبهت": نتيجة الحِجاج الحالية. و"الله لا يهدي القوم الظالمين": وصف من الله تعالى، بأنه ما كان ليسوقه إلى الاهتداء والاقتناع بالحجة المسُوقة –مع أنه يفترض فيه ذلك– لأنه من الظالمين.

والثاني حجاجه مع قومه، في قوله تعالى: "وحاجَّه قومُه قال أتحاجّوني في الله وقد هداني، ولا أخاف ما تشركون به إلا أنْ يشاءَ ربي شيئا، وسِع ربي كلَّ شيءٍ علما، أفلا تتذكّرون. وكيف أخاف ما أشركتُم ولا تخافون أنكم أشركتمْ بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً، فأيُّ الفريقين أحقُّ بالأمن إن كنتم تعلمون. الذين آمنوا ولم يَلبِسُوا إيمانهم بظلمٍ أولئك لهمُ الأمنُ وهمْ مهتدون. وتلكَ حجتُنا آتيناها إبراهيمَ على قومه، نرفعُ درجاتٍ من نشاءُ، إنَّ ربكَ حكيمٌ عليم" الأنعام/80–83.

ورد ذكر هذه المحاجّة بعد مستوى حجاجي أدنى من الصنف الثاني المذكور سابقا، وهو القائم على إيراد الحجة، في قوله تعالى: "وكذلك نُري إبراهيمَ ملكوتَ السموات والأرض وليكونَ من الموقِنين، فلما جنّ عليه الليلُ رأى كوكباً، قال هذا ربي، فلما أفَلَ قال لا أحبُّ الآفلين. فلما رأى القمرَ بازغاً قال هذا ربي، فلما أفَلَ قال لئن لم يهدِني ربي لأكونَنَّ من القوم الضالين. فلما رأى الشمسَ بازغةً قال هذا ربي هذا أكبرُ، فلما أفلت قال يا قومِ إني بريءٌ مما تشركون إني وجَّهتُ وجهيَ للذي فطرَ السمواتِ والأرضَ حنيفا، وما أنا من المشركين" الأنعام/75–79.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

ولذلك فالمخاطب ارتقَى من مستوى إيراد الحجة إلى مستوى ردّها في الآيات المذكورة؛ حيث تعرّض إلى تخويف من محاجّيه من عاقبة قراره: "إني وجّهتُ"، وحاجّوه في ذلك، فرد: "أتحاجّون في الله"، ثم ردّ حجّة تخويفهم: "وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله"، وفي هذا استدراجٌ للمخاطَب، وارتقاءٌ به إلى ضرورة النِّدِّية في الحجج؛ حيث ينبهه إلى ضرورة خوفِه هو أيضا من عاقبة شركه، على نحو تخويفه له من عاقبة قراره وكفره بما يعبدون. وبعد أن يضمن هذه النّدِّية المؤقتة، يردّ حجّة التخويف بحجّة أخرى: "فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون".

2- أشكال الحجاج في قصة إبراهيم عليه السلام:

لقد أخذت مستويات الحجاج المذكورة أشكالا عدة في عرض الحجة أو ردّها؛ ومن أشكال الحِجاج المعروفة، أن يثبت المتكلم قوله بدليل ثم يعود إليه ليثبته بدليل أقوى، أو اَن ينتقل بعد إثباته، إلى إثبات نقيضه بدليل آخر، أو بالدليل نفسه. ومنها أيضا التضاد الحجاجي، والتضاد التخاطبي المفصل، الحجاج بالمثل... وغيرها.(38)

وقد توافرت بعض هذه الأشكال في شواهد قصة إبراهيم عليه السلام، وهي:

أ-أن يثبت (عليه السلام) قوله بدليل ثم يكرر إثباته بدليل أقوى، ويظهر ذلك في مطلع حجاجه مع أبيه، في قوله تعالى: "إذ قال لأبيه يا أبتِ لم تعبدُ ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا يا أبتِ إني قد جاءني من العلم ما لم يأتِكَ فاتبعْني أهدِك صراطا سويا" مريم/42-43. فالدليل الأول: عدم سمع الأصنام وإبصارها وإغنائها. والدليل الأقوى: جاءني من العلم ما لم يأتك.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ب–أن يثبت (عليه السلام) قوله بدليل ثم يثبت نقيضَه بالدليل نفسه ، نحو قوله تعالى في موقفه (عليه السلام) مع قومه: "وكيفَ أخافُ ما أشركتُم ولا تخافون أنكم أشركتمْ بالله ما لم ينزل به سلطانا " الأنعام/81 ؛ حيث عرض عليهم تخويفهم له، والأقوى أن يخافوا همْ أيضا لأنهم أشركوا بالله.

جـ– التضاد الحجاجي القائم على التعارض والقياس، ومنه قوله تعالى في الآية السابقة: "وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به سلطانا".

د– الحجاج التخاطبي القائم على التفصيل، وهو كثير في القصة، وتكاد تقوم عليه، نحو حديثه السابق إلى أبيه "إذ قال لأبيه يا أبت... شقيا" مريم/42–48، وحديثه إلى قومه عن الكواكب "فلما جن عليه الليل ... إن ربك حكيم عليم " الأنعام/76–79، وحديثه إلى قومه عن الأصنام وأنها لا تسمع دعاءهم ولا تنفع ولا تضر، في: "واتلُ عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ... بقلب سليم" الشعراء/69–89.

وتلخيصا لهذا المبحث في القصة، نسجل أن مستويات الحجاج وأشكاله تعددت بتعدد ملابسات الخطاب الوظيفية، وحرص إبراهيم عليه السلام –بعدِّه الطرف الأساس في هذا الحجاج– على إيراد ما يلزم لضمان التواصل والإقناع، ومخالفته للقواعد الصورية، وفي هذا قيم كثيرة. ونسجل أيضا أن حججه عليه السلام متعددة وتتعلق بمستويات مختلفة بالنسبة إلى المتلقي ومنها :

• الحجة المرجعية الإجمالية: في حديث الذبح؛ حيث ذكر حجة الذبح قبل طلبه ذلك (إني أرى في المنام أني أذبحك) ، وفي هذا إحالة إقناعية للمتلقي.

• الحجة البصرية : تظهر في متابعته للكواكب وتحديد الحجة كلما استدعى الموقف ذلك بصريا: (الأفول، البزوغ...). وفي آيات تحطيمه الأصنام وإحالة قومه عليها، لتُخبِر عن نفسها.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

• الحجة العقلية: تظهر في : "وكيف أخاف ما أشركتم ولاتخافون أنكم أشركتم" وفي" الذي خلقني فهو يهديني والذي هو يطعمني ويسقيني ..."الشعراء/78-79، و"إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق" العنكبوت/15-16.

وخلاصة مبحث الحجاج هذا، أن إبراهيم عليه السلام من خلال القصة في ثنايا القرآن الكريم، يظهر متعدِّد المواقف الخطابية، بتعدّد الموضوعات المعروضة في الخطاب، وتنوع مخاطَبيه؛ فقد كان محاورا عارضا لاعتقاداته (مع أبيه مثلا)، أو لمعارفه الجديدة (مع ابنه مثلا)، أما مع (أبيه وقومه) في كثير حالات الخطاب. وكان محاجًّا باختلاف المستويات الثلاثة، بما في ذلك مناظرته مع النمرود الكافر. أما مع ربه تعالى فقد كان محاورا وسائلا، على اختلاف موضوعات الخطاب، كما سنرى في المبحث الموالي.

IV- مستويات المحاورة ودرجاتها في قصة إبراهيم عليه السلام:

لا يقوم الحجاج لغير المحاورة، وإن كان لكل منهما مستويات خاصة؛ فالحجاج يظهر حين التداخل اللغوي بين الأشخاص؛ أي حين تحقق الحوار، وقد يكون في حالات استثنائية بين الشخص ونفسه، وتلك صورة أخرى من صور المحاورة أيضا.

ولقد ذكرنا في المبحث الأول من هذه الدراسة دلالات المحاورة، من حيث قيامُها على الاشتراك بين المتحاورين والقصد، ومبدإ التعاون القائم على الإبلاغ أو التعارض.

ولقد قدّم (طه عبد الرحمن) عرضا وافيا للحوارية؛ حيث شرح شروطها واقترح ثلاث مراتب لها :(39)

أ-الحوار: يقوم على عرض ادّعاءٍ على المخاطب يُفترض فيه الاعتقاد به، وتصديقه، والتدليل عليه.

ب-المحاورة: تقوم على الاعتراض؛ حيث يرتقي المحاور مع المتعاون معه من العَرْض إلى

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

الاعتراض. ويفترض فيها رد فعل على قول المخاطب، تقويما أو استشارة، أو تشكيكا وسِجالا، ومعاكسة الحجة.

جـ-التحاور: يقوم على التعارض من طرفي الخطاب، والتقابل والتحاجّ. ولقد تتبعت هذه الدراسة أنواع الخطاب الحاصل في القصة، وحددت مراتبها في الأشكال الأربعة التالية:

1-الحوار في قصة إبراهيم عليه السلام، يتجلى لنا في المشاهد التالية:

الأوّل: حوار إبراهيم عليه السلام مع ربه، في قوله تعالى: "وإذِ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمّهنّ قال إني جاعلُك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهديَ الظالمين" البقرة/123 . ويتمثل مبدأ الحوار في التناوب الحاصل في فعل القول. ويمثل في إبراهيم عليه السلام دورَ السائل الراغب في الفهم (قال ومن ذريتي)، ويتلقى جواب ربه تعالى.

الثاني: حوار إبراهيم عليه السلام مع ابنه، في قوله تعالى: "...فلما بلغ معه السعيَ قال يا بنيّ إنيَ أرَى في المنام أني أذبحُك فانظرْ ماذا ترى قال يا أبتِ افعلْ ما تؤمرُ ستجِدني إنْ شاءَ الله من الصابرين" الصافات/102 . ويظهر لنا مبدأ الحوار في أن إبراهيم عليه السلام حين أُمِر بذبح ابنه، لم يأخذه قسرا، ليُذبح قهرا، وإنما "عرض ذلك على ولده ليكون أطيبَ لقلبه"(40). وفي هذا العرض يتجسد مبدأُ الحوار؛ حيث عرض إبراهيم على ابنه ما رآه في منامه واعتقده أمرا، وقد جعل الدليل (إني أرى في المنام) أسبقَ عن الموضوع (أني أذبحك)، ثم يعرض موضوعا آخر (فانظر ماذا ترى)، ليتواصل الحوار بعد ذلك.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

2-المحاورة في قصة إبراهيم عليه السلام: تتكرر المحاورة في مواقف كثيرة في القصة، لكنها تحتل مشهدا واحدا منها، وهو (إبراهيم مع أبيه وقومه)، في نحو قوله تعالى:

الأوّل: "ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين، قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين. قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين، قال بل ربكم رب السموات والأرض ... قالوا آنت فعلتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرُهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون" الأنبياء/51-63. فأساس التخاطب في هذه الآيات بين إبراهيم عليه السلام وأبيه وقومه، هو التعارض لا العرض. ويدخل ضمن مدلولِ التعارض ضمن هذه الآيات، نكرانُه عليه السلام على قومه عبادة الأوثان والانتقاص منها (ما هذه التماثيل ...)، وردوا عليه بأنهم يقتدون في ذلك بأسلافهم.. إلى جانب سؤالهم عن حديثه أهو حديثُ جادٍّ أم حديثُ لاعبٍ عابث؟ -على ألسنتهم-. ويتواصل الحوار؛ بحيث يقوم على الاعتراض من الطرفين؛ كلٌّ يعارض ما يعرضه الآخر، وبهذا بقوم مبدأ التعارض في الآيات.

الثاني: يظهر التحاور نفسُه في مشهد آخر مماثل، في قوله تعالى: "واتلُ عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين..."، إلى آخر الآيات من الشعراء/69 وما يليها. ويقوم على التعارض من الطرفين أيضا.

3-محاورة ترتقي إلى تحاور: حين يحتدّ التعارض بين طرفي الخطاب، وتتشابك ردود الفعل الكلامي القائمة على التقويم والتشكيك ومعاكسة الحجج؛ حيث يُرَدّ على الحجة بالحجة

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الداحضـة، وهنـا تكـون المحـاورة قـد ارتقـت إلـى مـا يعـرف بالتحـاور، ويظهـر ذلـك فـي المـوقفين التـــــــالــيين:

الأول موقف إبراهيم مع أبيه: "إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا... يا أبت إنـي أخـاف أن يمسك عـذاب مـن الـرحمن فتكون للشيطان وليـا" مـريم/42 ومـا يليها، وتقوم هذه الآيات على مبدإ الحوار الحامل لعرض ما يراه إبراهيم عليه السلام وما يعتقده. ثم سرعان ما يرتقي الحوار إلى مخاطبة في قوله تعالى: "قال أراغبٌ أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنّك واهجرني مليا قال سلام عليكَ سأستغفر لكَ ربي إنه كان بي حفيّا"؛ حيث يظهر مبدأ التعارض، ويرتقي الحوار بعدها إلى تحاور بإصدار إبراهيم عليه السلام موقفه (وأعتـــزلكم ومـــا تـــدعون)، وفـــي هـــذا جـــواب لأبيـــه (أراغـــب). الثاني مع أبيه وقومه في قوله تعالى: "وإنّ من شيعته لإبراهيمَ إذْ جاءَ ربَّه بقلب سليم إذ قال لأبيه وقومِه ماذا تعبدون..." إلى آخر الآيات من سورة الصافات؛ حيث يحتدّ التعارض، ليقوم على ردّ الحجج ومقابلتها من الطرفين.

4-**التحاور في قصة إبراهيم عليه السلام:** قد يكون المشهد قائما على التحاور الخالص من الطرفين متمثلا في التقابل والتحاجّ، ويظهر ذلك في موقفين:

الأول: تحاوره عليه السلام مع قومه، في قوله تعالى: "وحاجّه قومُه، قال أتحاجّوني في الله وقد هدان، ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا، وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأيُّ الفريقين أحـــق بـــالأمن إن كنـــتم تعلمـــون" الأنعـــام/80-81.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الثاني: تحاور إبراهيم عليه السلام مع النمرود الكافر، في قوله تعالى: "ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيمَ في ربه أنَ آتاه الله الملكَ إذْ قال إبراهيمُ ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيمُ فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب فبُهِت الذي كفر والله لايهدي القوم الظالمين" البقرة/258.

وخلاصة مبحث المحاورة ودرجاتها أن الخطاب في القصّة يقوم أساسا على حوار متعدد الأشكال و الدرجات؛ فقد كان عليه السلام محاورا (الحوار) مع ربه وأبيه وابنه، وكان محاورا (محاورة) مع أبيه وقومه، وكان متحاورا مع قومه والنمرود الكافر. وهذا على اختلاف مواقف الخطاب ودواعيه. وربما شهِد الموقف نفسه أشكال الحوار الثلاثة مجتمعة بارتقاء الخطاب من الحوار إلى المحاورة ثم إلى التحاور، نحو موقف إبراهيم عليه السلام مع أبيه في سورة مريم.

---

*قسم اللغة والأدب العربي جامعة سطيف- الجزائر

الإحالات:

1. ابن منظور: لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، باب الحاء، (حجج)، (حجوتُه).
2. المصدر نفسه، باب الحاء، (حجج)، (محجية)، ذكرها الأزهري.
3. المصدر نفسه، باب الفاء، (فحج)، الأفحج: الذي في رجليه اعوجاج.
4. المصدر نفسه، باب الحاء، (حجج)، الحجاج بالكسر والفتح: العظم المستدير حول العين. وحجاج الشمس حاجبها وهو قرنها.
5. المصدر نفسه، باب الحاء، (حجج)، "التحاجّ: التخاصم". وذكره الفيروزابادي باللفظ نفسه، في القاموس المحيط: مؤسسة الرسالة، 1993، باب الجيم، فصل الحاء، (الحج).
6. تفسير ابن كثير:/ دار إحياء التراث العربي، 135/7.
7. المرجع نفسه: 521/4.
8. تفسير ابن جرير الطبري: نشر دار المعرفة، 1990، 158/7.
9. يُنظر ابن منظور: لسان العرب، باب الحاء، (حجج)، (حجَّه يحجُّه، حجًّا: غلبه على حُجّته...).

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

10. المرجع نفسه، باب الحاء، (حجج)، "التحاجّ: التخاصم". وذكره الفيروزابادي باللفظ نفسه، في القاموس المحيط، باب الجيم، فصل الحاء، (الحج).
11. يُنظر عبد السلام المسدي: التفكير اللساني في الحضارة العربية، /المواضعة في اللغة والقصد/، الدار العربية للكتاب، ط2، 1986، ص145.
12. المرجع نفسه، ص146.
13. القاضي عبد الجبار: المغني 724/17، نقلا عن المصدر نفسه، ص 146.
14. طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، ط2، 2000، ص45.
15. محمد سالم ولد محمد الأمين: مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، (مقال)، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دولة الكويت، مج28، ع يناير – مارس2000، ص57.
16. المرجع نفسه، ص59.
17. Georges vignaux:l'argumentation (Essai d'une logique diseursive) librairie Droz, genève, paris, 1976, p 02.
18. ابن منظور: لسان العرب، فصل الحاء، (حور)، (الحوْرُ: الرجوع عن الشيء وإلى شيْء).
19. الفروزابادي: القاموس المحيط، باب الراء، فصل الحاء، (الْحَوْرُ).
20. المصدر نفسه.
21. ابن منظور: لسان العرب، فصل الحاء، (الحوْر)، (حار إلى الشيء وعنه: رجع عنه وإليه).
22. المصدر نفسه، فصل الحاء، (حور)، (استحار).
23. تُراجَع هذه الدلالات في (حار، يَحُور) في ابن منظور: لسان العرب، وفي تفسير القرطبي، وتفسير زاد الميسر، فيما ورد في سورة الانشقاق "إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يحور".
24. الزوزني: المعلقات السبع، منشورات أرومية، مطبعة جاب أمير، قم، 1205 هـ، ص152.
25. طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص37.
26. J.L.Austin : Quand dire c'est faire, édition du seuil, 1970.
27. طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص29.
28. المرجع نفسه، ص55–57.
29. أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين؛ الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي, ومحمد أبي الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، صيدا, بيروت, 1986، ص135.
30. الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام هارون،دار الجيل،

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

لبنان،د.ت،ج93،1-94.

31. يُنظر مثلا: السكاكي، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1403هـ-1983م، ص64.

32. ابن القيم: مفتاح السعادة، 220/1، نقلا عن: محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية, إفريقيا الشرق, المغرب- لبنان, ط2, 2002، ص37.

33. ابن كثير: قصص الأنبياء، دار التجليد الفني، الجزائر، 1981، ص129.

34. يُراجع ذلك مثلا في (الأفعال الإنجازية) في: أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية، مدخل نظري، عكاظ، الرباط، 1988، ص19 وما يليها.

35. الجاحظ: البيان والتبين، ج1ص88.

36. يذهب الدرس النحوي إلى أنه يمكن أن تحتمِلَ جملة "أراغبٌ أنت" وجهين للإعراب: الأول: راغب، مبتدأ وصف. أنت، فاعل أغنى عن الخبر. والثاني: راغب، خبر مقدم. أنت، مبتدأ مؤخر؛ ذلك أن المبتدأ والخبر فيها متطابقان إفرادا. لكنه يمكن عدُّ هذين الوجهين سياقين مختلفين لجملة واحدة؛ فإن كان سياقها تعبيرا عن غير المتوقَّع فهي على الوجه الأول، (على ما تم تخريجه في المتن، وهو السياق المناسب للآيات)، وإن كان غير ذلك، فهي على الوجه الثاني. والله أعلم.

37. ابن كثير: قصص الأنبياء، ص142.

38. يُراجع ذلك في: محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص69 وما يليها.

39. يُنظر: طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص29 وص33 وما يليها.

40. ابن كثير، قصص الأنبياء، ص160.

This file was downloaded from QuranicThought.com